مصطلح البلاغة القرآنية

دراسة مفهومية

محمد البركاني

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مصطلح البلاغة القرآنية دراسة مفهومية

الطالب الباحث: محمد البركاني

حاصل على شهادة الإجازة في شعبة الدراسات الإسلامية.

حاصل على شهادة الاجازة في شعبة الدراسات العربية

حاصل على شهادة الماستر في الدراسات القرآنية بالغرب الإسلامي قضايا ومناهج.

إن مصطلح البلاغة القرآنية قد تخلق في كتب الإعجاز القرآني والتفسير تخلقا، وقد تنوعت أقوال العلماء في تحديده ورسم معالمه وعوالمه، وقد جاولت في هذه الورقة البحثية أن أدرس مصطلح "البلاغة القرآنية" دراسة مفهومية تنظيرية، وذلك من خلال الوقوف عند أهم جوانبها ومستوياتها.

مصطلح "البلاغة القرآنية" مركب من كلمتين وهما: البلاغة والقرآنية، وهذا يجعلنا ندرك حقيقتين مهمتين وهما:

1- مصطلح البلاغة هو من المصطلحات العابرة للفنون والخطابات والنصوص، فهناك ما يسمى ببلاغة الشعر، وبلاغة النثر، وهناك بلاغة القرآن، فالنصوص تتمايز فيما بينها بحسب ما فيها من البلاغة ودقة الصياغة، وهذا ما يسمى ببلاغة النوع، ولهذا فبلاغة الشعر ليست كبلاغة النثر وبلاغة القرآن أعلى من بلاغة الشعر والنثر.

2- بلاغة القرآن هي بلاغة خاصة بالخطاب القرآني دون غيره من أصناف القول وفنون الخطاب، فالقرآن الكريم ذو خصوصية بلاغية فارقة، ولفهم بلاغة القرآن لابد من فهم البلاغة أولا والإحاطة بقواعدها وأسسها وعلومها الثلاثة.

إن المتأمل في مظان الكتب التي اهتمت ببلاغة القرآن أو الاعجاز البلاغي إجمالا أو تفصيلا يظهر له بعين الدقة ما يخفيه النظم القرآني من دقة المباني وعمق المعاني، ولعل صياغة تعريف شامل جامع مانع للبلاغة القرآنية يستعصي على عقولنا القاصرة؛ لأن الخطاب القرآني من أصغر أجزائه إلى أكبرها تتحقق فيه فنون البلاغة والفصاحة، ومحاولة منا في الاقتراب من المفهوم ارتأينا أن نصوغ تعريفا للبلاغة القرآنية كالآتي:

البلاغة القرآنية هي ما يتميز به القرآن الكريم عن أجناس القول، من ألوان البلاغة والفصاحة الكامنة في ألفاظه وجمله ونصوصه، ومبانيه ومعانيه، وتعتبر من وجوه إعجازه العظيم، وإحكامه المتين

ولا تقف البلاغة القرآنية عند حد فنون البلاغة المبثوثة في الكتب المعاصرة، وإنما تفوق ذلك إلى حسن التأليف وروعة البيان والانسجام؛ لأن وجود هذه الفنون ليس مقتصرا على الخطاب الشرعي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقط، وإنما تشترك فيها جميع الخطابات والنصوص الإبداعية، غير أن القرآن يخرج هذه الفنون إخراجا بديعا في صورة مبهرة. وهذا ما جعل البلاغة القرآنية من وجوه إعجاز القرآن وإتقان صنعه.

ولا يستقيم لنا حديث عن البلاغة القرآنية دون أن تكون لنا وقفة مع المجالات التي تظهر فيها وهي كالتالي:

1- اللفظة القرآنية:

قد حظي اللفظ قديما باهتمام بالغ من النقاد فخصصوا للحديث عنه طرفا من كتبهم، وذلك لما له من أهمية عالية ومكانة سامقة في التفكير البلاغي، وما كانت للفظ هذه الأهمية والأفضلية إلا لأنه به يتألف الكلام، وينقل المعنى القائم بالنفس إلى الأنام، ولكن لا يكون التفاضل والتمايز للألفاظ لذاتها وإنما لموقعها من الجملة والسياق، وقد قال عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها"[1]

هذا فيما يخص اللفظ بصفة عامة، أما اللفظ القرآني فإنه يمتاز بمجموعة من الخصائص والميزات منها:

1- فصاحته: فهو منزه عن العيوب التي تخل بفصاحة اللفظ، فحروفه وأصواته متناسقة منسجمة، وصيغه موافقة للقياس الصرفي.

2- مناسبة اللفظ للمقام: فالقرآن الكريم يختار للألفاظ مواقعها المناسبة لها، بحيث لا يمكن استبدال كلمة من القرآن بكلمة أخرى، حتى وإن كانت من مرادفاتها؛ لأنه توجد فروق دقيقة بين هذه المرادفات، والقرآن الكريم دقيق في اختيار الألفاظ التي تحقق الغرض والمقصود، وتتناسب مع مقتضى الحال والمقام.

فمثلا بعض المواضع التي استعمل الله -تعالى- فيها لفظ الخشية، لا يمكن أن تضع مكانها لفظ الخوف، لما بين هاتين المفردتين من تفاوت في المعاني، فقد ورد عند أهل اللغة أن الخشية أعلى مرتبة من الخوف.[2]

---

[1] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م، ص:46.

[2] الاحكام المعجز في بلاغة القرآن، محجوب الحن محمد، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، م: 7، 1994/1414م، ص:217.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

3- اللفظة القرآنية حمالة معاني متعددة: تتسع اللفظة القرآنية لتشمل معاني كثيرة ومتنوعة ينبئ عنها السياق القرآني والنسيج الرباني، وفيها دلالة على إعجاز القرآن وإحكامه وإتقان صنعه.

2- الجملة القرآنية:

تتميز الجملة القرآنية بدورها بمجموعة من الخصائص البلاغية منها:

1- الاتساق والانسجام والترابط بين الكلمات، فالجملة القرآنية تتكون من مجموعة من الكلمات المتلازمة والمترابطة، التي يألف لها السمع، ويرق لها الطبع، وتترك في النفس أثرا وفي العقل موطنا، فلا يمكنك وأنت العارف بأصول البلاغة، وقواعد الصناعة أن تشير إلى كلمة من كلمات الجملة القرآنية وتقول يا ليتها استبدلت بكلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجاما وأكثر التئاما.

2- قصر العبارة ووفرة المعنى: فالجملة القرآنية تدل بقصر العبارة على المعنى الواسع الشاسع التام المتكامل، الذي لا يستطيع أحد من ذوي التفكير والتعبير أن يسوقه في وجيز الألفاظ وقليل الكلمات.

3- النص القرآني: للنص القرآني خصائص تميزه عن باقي النصوص والخطابات، والمتأمل في نصوص

القرآن الكريم وخطاباته سيجد أنها مبنية بناء محكما متماسكا مترابطا متناسقا، وقد أخبر القرآن الكريم عن هذا بقوله تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[سورة هود: 1]

فالنص القرآني نص متماسك تترابط ألفاظه وجمله ونصوصه ترابطا وثيقا ومتينا ويتنج عن هذا الترابط نظام محكم لا يقبل التجزيء والتفكيك، فالقرآن كله كالسورة الواحدة يكمل بعضه بعضا. وقد أشار سيد قطب (ت: 1385هـ) في كتابه التصوير البياني في القرآن الكريم إلى أن جمال القرآن الكريم ليس في كونه أجزاء، ولكن جماله في كونه جملة موحدة تقوم على قاعدة خاصة فيها من التناسق العجيب ما لا يدركه إلا من عرف قيمته وعنى قراءته ومدارسته، ووقف على صميم النسق القرآني الذي هو منبع التأثير والسحر.[3]

ومن مظاهر انسجام النص القرآني وترابطه ما يلي:

[3] ينظر التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ص:10.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

1- أن القرآن يفسر بعضه بعضا فما أجمل في مكان فصل في مكان آخر، وما أطلق في مكان قيد في مكان آخر،[4] ولهذا قال علماء التفسير: إنه يجب على المفسر أن يطلب معنى الآية من القرآن أولا، فإن لم يجد فيرجع إلى السنة وإن لم يجد فيرجع إلى أقوال الصحابة.

2- تماسك أجزاء النص: وقد أشرنا إلى هذا في حديثنا عن اللفظة القرآنية والجملة القرآنية، فالنص القرآني تتماسك مفرداته وجمله تحت نسق واحد، وهذا التماسك يحقق ترابطا عجيبا للنص القرآني.

3- الطباق والمقابلة:

الطباق: هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى[5]

المقابلة: هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.[6]

4- التناسب بين السور: فسور القرآن الكريم متعاضدة متماسكة، فهي تفسر بعضها بعضا، وقد تنبه الكثير من العلماء إلى هذا الأمر فألفوا كتبا في هذا المجال منها:

1- كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي (ت: 708 هـ)

2- كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت: 885 هـ)

3- كتاب تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي (ت: 911 هـ)

وقد تحدث علماء القرآن عن التناسب بين السور في بطون كتبهم وثنايا مباحثهم. والتناسب بين السور ينقسم إلى قسمين:

- ✓ تناسب بين آيات السورة الواحدة: كالتناسب بين بداية السورة ونهايتها.
- ✓ تناسب بين السور: كالتناسب بين نهاية السورة وبداية السورة التي بعدها والتناسب المضموني.

5- الوصل مبنى والفصل معنى: وهذا مبحث جليل القدر والأهمية، وقد أولاه الباحثون في مجال علوم القرآن عناية فائقة، فعقد له بدر الدين الزركشي (ت: 794 هـ) فصلا ضمن علم المناسبات

---

[4] المنار في علوم القرآن مع مدخل في أصول التفسير ومصادره، : محمد علي الحسن، ، قدم له: الدكتور محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م

[5] جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، دط، ص: 303.

[6] المرجع نفسه، ص: 304.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سماه "فصل في اتصال اللفظ والمعنى على خلافه"[7]، ووضع له جلال الدين السيوطي(ت: 911 هـ) بابا في أنواع علوم القرآن سماه "بيان الموصول لفظا المفصول معنى"[8]

ومن يمعن النظر في هذا الباب، سيقف على جانب عظيم من بلاغة القرآن، لا تجده في أي خطاب غيره؛ وهذا لأن خطاب القرآن خارق للعادة النمطية المعهودة في الأذهان، وآت بما هو عجيب وغريب عن الاسماع والآذان، وهذا ما يتجلى بشكل واضح في هذا الباب، إذ إن النظر إذا وقف عند ظواهر بعض الألفاظ والجمل في القرآن الكريم حسبها متصلة لفظا ومعنى؛ لشدة الانسجام بين الألفاظ وهي ليست كذلك، فعلى الناظر أن يقطر ألفاظ القرآن تقطيرا ويحققها تحقيقا ليقف على هذا الاختلاف من جهة المعنى.

وهذا الباب يحتاج لدقة النظر؛ لأن مكمن الاختلاف كامن في المعاني، والمعاني مختفية وراء الألفاظ وليست ظاهرة للعيان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فألفاظ القرآن الكريم لشدة تماسكها وانسجامها وترابطها أوهمت السامع والقارئ بأن المعنى واحد.

ويتجلى الانسجام في هذا الباب في أن القرآن الكريم يجمع معاني مختلفة تحت وحدة لفظية واحدة.

وأختم حديثي عن البلاغة القرآنية بالوقوف عند مسألة أرى أنها جديرة بالذكر والإيراد، وهي أن التفاسير التي اهتمت بيان جمال بلاغة القرآن، والأسرار البلاغية الكامنة فيه آية آية نادرة إن لم نقل منعدمة، إلا إذا استثنينا العالمين الجليلين: الزمخشري والطاهر بن عاشور وجهودها في إظهار بلاغة القرآن. وينصح بعض الدراسين والعلماء الطلبة الباحثين ببعض كتب التفسير التي نزعت إل البحث في البلاغة في نصوص القرآن، ولكن عند دراسة هذه الكتب وتحقيق النظر فيها وصبر أغوارها نجد أنها لم تبحث عن الجانب البلاغي في كل آي القرآن، فضلا عن أنها لم تكشف عن الأسرار البلاغية الدقيقة الكامنة في القرآن من بدايته إلى نهايته، فغاية ما قد حققته هذه الكتب هو استنباط بعض الأساليب البلاغية، والمحسنات البديعية مع الوقوف على بعض النكت واللطائف.

---

[7] البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، 50/1

[8] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م،390/1.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولهذا يجب أن يدرك الدارسون كيفية التعامل مع بلاغة القرآن ونسقه الإبداعي، وذلك من خلال فهم مصطلح البلاغة القرآنية ودرك مقصود منطوقها، وهذا ما حاولت الوصول إليه من خلال هذه الورقة البحثية. فأرجو من الله أن أكون قد وفقت في هذا العمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.